

## اضواء على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

السيرة بين المنهج التاريخي . . والسلوك التربوي

الاستاذ عبدالجواد خلف عبدالجواد

عضو بعثة الأزهر في باكستان

(١) جوانب من عبقرية الرسول الحربية .

درج مؤرخو السيرة وكتابها، على سرد حياة النبي صلى الله عليه وسلم، تاركين لجمهور المسلمين أن ينهلوا من روائع عظمة صاحب السيرة، ماشاء لهم أن ينهلوا .

و قد انقضى على المسلمين دهر طويل، عولوا فيه على الاكتفاء بسرد حياة النبي الكريم دون أن يكلفوا أنفسهم أبعد من ذلك !

حيث تنبرى الأقلام ، و تتسابق الصحائف ، و تهتز أعواد المنابر من الحناجر، و تقام سرادقات الزينة، و ترفع الاعلام . .

ثم بين يوم و ليلة ينفض السامر، و تسكت الحناجر، و تكف الأقلام و تنزل الأعلام . . . تماما كما يفعل في ذكرى ميلاد أى زعيم أوسياسى، له فى نفوس أبناء وطنه بعض من الذكرى .

وما هكذا يكون جلال الموقف مع رسول الله !!

و كيف يقبل المسلمون أن توضع سيرة الرسول بين صفوف الزعامات العادية، وهو المبرز بين صفوف الانبياء و المرسلين ؟!

ولو قد أقبل المسلمون على تأسيس جامعة "أكاديمية"، علمية متخصصة لدراسة الجوانب المتعددة لعظمة الشخصية المحمدية لكانوا جديرين بالانتساب الى صاحب الأمة بدلا من سلوك مسلك الشعارات التي ترفع في ليلة، وتنزل في نهار..!!

ولن يعدم المسلمون و سائل اقامة هذه المؤسسة العلمية المتخصصة "و هم اليوم بحمد الله كثير.. .

كما أنهم لن يفتقروا الى جمع المادة العلمية، حول مختلف جوانب العظمة للشخصية المحمدية الفذة، فهي تملأ بطون المراجع والأسفار.. .

وما أكثر جوانب العظمة في شخص محمد "صلى الله عليه وسلم"، الى الحد الذي يصلح كل جانب منها أن يكون منهجا تاريخيا قائما بذاته، يتوفر عليه الدارس بحثا و استقصاء، دون أن يوفيه حقه الا بقدر ما ييسره له اجتهاده، ليبقى الباب - مع ذلك - مفتوحا على مصراعيه أمام مجتهد آخر ينضم الى صفوف الباحثين عن هذا الجانب فحسب.. !

وما أكثر جوانب العظمة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم - أيضا - الى الحد الذي يصلح فيه كل جانب على حدة أن يكون أساسا لسلوك تربوي فذ لكل فئة متخصصة في بابها..!!

و نورد الآن بعضا من جوانب العبقرية الحربية عند الرسول عليه السلام كمشاا : و العبقرية الحربية في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ترتقى الى أحسن المستويات العسكرية التي عرفها التاريخ الحربي للانسان . .

سواء من: (١) ناحية المادة العلمية "كفن حربي"، يصلح لأن يكون

منهجاً دراسياً متكاملًا . . . ابتداءً من مرحلة "اتخاذ القرار الحربي"، حتى تنفيذ العملية الحربية، وتولى توجيهها وقيادتها .

**أوسواً من :** (ب) ناحية التأثير النفسي على الدارس المتخصص لهذا اللون من الفنون العلمية، الى الحد الذي يبلغ درجة عالية من النخوة، والشهامة، و البسالة، والاقدام إلى المعارك "لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه" .

(١) أما عن ناحية المادة العلمية كمنهج دراسي متكامل فلسنا هنا - في هذا الحيز المحدود - بصدد سرده، و إنما تكفينا الإشارة دون الاسهاب :

### (١) اتخاذ القرار الحربي :

تتمثل العظمة الحربية في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم من مرحلة اتخاذ القرار الحربي، و هي مرحلة هامة و دقيقة، يتوقف عليها مستقبل الحرب كلها، و لذا ينعقد لها ما يسمى في العصر الحاضر "مجلس الحرب"، الذي يتكون عادة من قادة الأسلحة، و يترأس هذا المجلس القائد الأعلى، و غالباً ما يكون في نفس الوقت شخص رئيس الدولة المحاربة .

و لعل من بدهيات القول أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تفتقت عقليته من عقد مجالس الحرب التي يتخذ فيها عادة "قرار الحرب"، بمشورة قادة الألوية المختلفة، كما حدث ذلك في أول غزوة حربية فعلية، حيث جمع النبي صلى الله عليه وسلم كبار الزعماء والقادة من المهاجرين و الانصار، الذين كانوا يمثلون في نفس الوقت القيادات الحربية في الجيش ليستشيرهم في الدخول الى معركة تصادمية

مفاجئة مع العدو .

و أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع الى قرارات هذه القيادات، واحدا بعد الآخر .

قام المقداد بن عمرو، ليدلى بقرار المهاجرين فى الحرب فقال :  
 ”يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، و الله لا نقول  
 لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا  
 انا ههنا قاعدون . ولكن اذهب أنت و ربك فقاتلانا معكما  
 مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا الى برك الغماد (١)  
 لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

و كان أبو بكر، و عمر، رضى الله تعالى عنهما قد قاما قبله فقالا، و أحسنا .

ثم قام سعد بن معاذ ليدلى بقرار الانصار فقال فيما قال :

”امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك  
 فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا  
 البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل  
 واحد، و ما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، انا  
 لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء . لعل الله  
 يريك ما تقر به عينك، فسر على بركة الله، .

و المولعون بتحليل مجالس الحرب لا بد أن يخرجوا من هذا المجلس باستنتاجات

رائعة أهمها :

**اولا:** أن هذا المجلس عقد قبل خوض أول معركة فعلية للنبي صلى الله عليه و سلم

(١) موضع باليمن، أو بالحشة .

و ليس نتيجة لخبرة حربية مكتسبة من حروب سابقة مما يدل على ملكة حربية فطرية عند الرسول عليه السلام .

**ثانيا :** أن النظرة العميقة لأصدار قرار الحرب نفسه، هو دراسته من نواح شتى أهمها معرفة مدى استعداد القوات المحاربة في خوض المعركة، واتجاهات القادة السياسية و النفسية، و خططهم الحربية دفاعا أو هجوما .

**ثالثا :** أن مسؤولية اصدار قرار الحرب لا يصح أن ينفرد بها رئيس الدولة فقط، بل لابد أن يشترك فيها كل القيادات المسؤولة في الدولة .

**رابعا :** أن العبقرية الحربية تتجلى عند النبي صلى الله عليه وسلم في استماعه بكل دقة الى قرارات القادة في المجلس وهو ما يعرف عند أهل الحرب في العصر الحديث اصطلاحيا باسم ”تنظيم بنود المعركة“، مع القيادات المختلفة للأسلحة المشتركة في الحرب .

## (٢) الاستطلاع :

ماسن قائد في العصر الحديث درس أحدث الأنظمة العلمية للتجهيز لخوض معركة حربية الا و يعرف أن من أولى المهام في ” بنود المعركة“، هو ”الاستطلاع الجيد“، وهو دراسة عملية ”على الطبيعة“، يقوم بها القائد شخصيا، وسعه معاونوه، لدراسة أرض المعركة، و وضع قواته، و قوات العدو .

هكذا يدرس قادة الحرب في العصر الحديث، و هكذا يتعلم طلاب الفن الحربى في المؤسسات العسكرية في جميع أنحاء العالم .

و هذا عين ما فعله محمد صلى الله عليه وسلم القائد العظيم، قبل أن تقوم المؤسسات الحربية الحديثة على قدم وساق، لتدلى بدلو ابتكاراتها في هذا المضمار . !

اذ ما كاد النبي صلى الله عليه وسلم يفض مجلس الحرب الذي اتخذ "بالا جماع"،  
 قرار الحرب، حتى نزلوا قريبا من بدر، و ركب هو و أبو بكر رضى الله عنه حتى  
 وقف على شيخ من العرب يقال له "سفيان الضمرى"، و كان لا يعرف النبي ولا  
 أبا بكر و أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يستدرج الرجل فى الكلام يسأله عن  
 قريش و عما يعرفه عن محمد و أصحابه، وما بلغه عنهما (على طريقة جمع المعلومات  
 عن العدو فى العصر الحديث) و دار حوار طريف ، ساقه الينا ابن هشام فى سيرته :  
 .. قال الشيخ للنبي و أبي بكر (و هو لا يعرفهما) : لا أخبركما حتى

تخبرانى من أنتما ؟

.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أخبرتنا أخبرناك .

.. قال : أذاك بذاك ؟

.. قال : نعم .

قال الشيخ : فانه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا و كذا، فان كان  
 صدق الذى أخبرنى، فهو اليوم بمكان كذا و كذا، للمكان الذى به رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا و كذا، فان كان الذى  
 أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا و كذا، للمكان الذى فيه قريش . فلما  
 فرغ من خبره . . قال : ممن أنتما ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن من ماء، ثم انصرف عنه.!!  
 والذى يجب أن يهدى الى الباحثين العسكريين فى فن الاستخبارات وجمع  
 المعلومات الحربية عن العدو، هو عبقرية النبي صلى الله عليه وسلم فى طريقة الاستخبار  
 الحربية، و فن إستخلاص المعلومات الحربية إلى اندرجة التى لا يشك معها المسئول فى

غرض السائل، ولا يرتاب في قصده، وما يرمى إليه .

ولنا أن نلمح من فيض عبقرية الرسول حول هذا الاستخبار ما يلي :

**أولاً:** أن النبي صلى الله عليه وسلم — كقائد حربي — حرص على أن يقوم بمهمة جمع المعلومات والاستطلاع بنفسه .

**ثانياً:** أن طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في استدراج ذلك الرجل للحصول على المعلومات طريقة فريدة في بابها، تدل على ملكة، وبديهة سريعة، في هذا الفن، حيث وجه إليه أسئلة دقيقة عن قوات العدو، و أماكن تمركزها، و مع ذلك حرص على أن يفوت على الرجل فرصة الشك، فسأله عن جيش المسلمين (وهو بالطبع في غير حاجة الى هذا السؤال) . و هذا من الذكاء الحربي النادر، اذا أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) القائد أن يموه على الرجل الوقائع، و في ذات الوقت أراد أن يعرف مدى المعلومات التي تسربت عن قواته — هو — الى العدو .!!

**ثالثاً:** أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينس — وهوفي زحمة القيادة — أثناء الحرب أنه نبي، فلم يكذب على الرجل حينما اتفقاً بداءة على تبادل المعلومات فعند ما عاد الرجل يستفسر النبي (صلى الله عليه وسلم) من أنتما؟ قال عليه السلام: نحن من ماء .

و لقد صدق الرجل، وصدق رسول الله !! .

فأما عن صدق النبي عليه السلام، فنحن جميعاً من ماء .!! !

و أما عن تصديق الرجل فربم احسب أن السائل الكريم و صحبه من ماء

العراق؟ ! (١)

### ”الاغارة، والكمين“

ولعل من الفنون الحربية الهامة للحصول على المعلومات - في العصر الحديث هو الاغارة ”أو الكمين“، تقوم بها قوات صغيرة خفيفة الحركة، تغير على بعض أفراد العدو في مواقعها أو تكمن لها لتأسر منها واحدا أو أكثر، يكون مصدرا لجمع المعلومات بطريقة الاستجواب، و يحدث هذا أثناء اعداد القوات، و قبيل الاشتباك الفعلي، أو في حالة الحرب الدفاعية، قبل القيام بالهجوم الشامل . و يمكن القول أنه من الأمور الفريدة في هذا الباب أن النبي عليه السلام لم يفته أن يستعمل هذا اللون من الفن الحربى .

اذ ما يكاد الرسول و صاحبه يعودان من استطلاعهما حتى انتظر أن يسدل الليل أستاره، و بعث على بن أبى طالب، و الزبير بن العوام، و سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه الى ساء بدر يلتسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية (٢) لقريش فيها ”أسلم“، غلام بنى الحجاج و ”عريض أبو يسار“، غلام بنى العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألو هما، و رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى . .

.. فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم الماء . فكره القوم

خبر هما، و رجوا أن يكونا لآبى سفيان ، فضربو هما . فلما أذلقو هما، (٣)

.. قالا : نحن لآبى سفيان، فتركو هما .

و يجب أن نتوقف هنا قليلا لنقول :

(١) بلدة فى العراق . (٢) الدابة- التى تحمل الماء (٣) أى أتعبوهما .



إنه وان كان تاريخ الحروب الإسلامية حافلا بأسرى الحرب، و طرق استجوابهم، الا أنك تلمح ذكاء النبي عليه السلام فى استجواب هذين الأسيرين، اذ أنه — عليه السلام — ما كاد يفرغ من صلته حتى أقبل على "على"، و من معه، وكأنه يعتب عليهم طريقة الحوار مع الأسيرين و يقول : اذا صد قاكم ضربتموهما، و اذا كذباكم تر كتموهما ؟ صدقا و الله انهما لقريش .

### الرسول يستجوب الأسيرين :

و بطريقة عبقرية ذكية بدأ الرسول عليه السلام يستجوب الأسيرين :

.. قال عليه السلام : أخبرانى عن قريش ؟

.. قالا : هم والله وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

.. قال عليه السلام : كم القوم ؟

.. قالا : كثير،

.. قال : ما عدتهم ؟

.. قالا : لاندري،

و كان يمكن أن ينتهى الاستجواب عند هذا الحد، لنضوب المعلومات عند هذين الأسيرين، كما أن التعدى عليهما بالضرب لا يفيد، اذ أنهما يعمدان إلى الكذب السريع فرارا منه ! لذلك لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم الى استعمال ذكاء المحارب، فعاد يسألها مغيرا طريقة الاستفسار، الى طريقة السؤال الاستنتاجى .

قال عليه السلام : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يوما تسعا، و يوما عشرا :

فقال عليه السلام : القوم فيما بين التسعمائة و الالف . ثم قال لهما :

فمن فيهم من أشرف قريش ؟

قالا : عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة، و أبو البختری بن هشام، و حكيم ابن حزام الى آخر ما ذكرنا من الاسماء .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألت اليكم أفلاذ كبدها . و غاية ما نسوقه إلى الباحثين العسكريين في فن الاستخبارات، و تقصي المعلومات الحربية عن هذا الاستجواب، أنه استجواب لا يحتاج الى تعليق . . !

فهو على أرفع مستوى علمي حديث في فن استخلاص المعلومات عن العدو من لسان أسراهم دون اهدار لآدمية الأسير أو اللجوء الى تعذيبه تعذبا و حشيا، كما تفعل إدارات الاستخبارات في أنحاء العالم اليوم .  
و في فن استطلاع الأرض ، و مشاوره القادة و مناقشتهم في اختيار أنسب المواقع الحربية تبرز معالم الشخصية الحربية و ملاحظها في عبقرية محمد عليه السلام في أكثر من سوقعة حربية قادها بنفسه .

و ليست العبقرية الحربية في خطة ينفرد بوضعها القائد، و يستبد برأيه حولها، بل هي كثيرا ما تكون في اقتناع القائد الأعلى لخطة يضعها قائد آخر، أنسب لظروف المعركة ، فيعدل بخطته اليها . و تاريخ السيرة يقدم لنا مثل هذا أكثر من معركة . . حيث كان عليه السلام يستمع الى وجهات النظر المختلفة، ثم يحللها تحليلا دقيقا، ليستخلص أنسبها، و قد يعدل عن رأيه الى رأى آخر، يراه مناسبا لظروف القتال . .

ففي غزوة بدر الكبرى، نزل جيش المسلمين بالعدوة الدنيا، و نزل جيش الأعداء بالعدوة القصوى، ورأى الرسول عليه السلام أن يحتل الجيش أدنى ماء من بدر، و لكن قائدا آخر هو، الحباب بن المنذر بن الجموح يقول :

يا رسول الله، أ رأيت هذا المنزل، أسزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي و الحرب و المكيدة ؟

قال عليه السلام : بل هو الرأي و الحرب و المكيدة ؟

فقال الحباب : فان هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ماوراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون،

فقال عليه السلام : لقد أشرت بالرأى .

لما ذا ؟ لأن هذا عين الذكاء الحربى !!

اذ أنه في لغة الحرب الحديثة : قبل خوض المعركة على القائد، أن يوجه عناية خاصة الى الشؤون الادارية و أهمها توفير الماء اللازم للجنود، في نفس الوقت الذى يعمل فيه على حرمان عدوه من الاستفادة بشئونه الادارية .

و لذلك تلجأ الجيوش المحاربة الآن الى تدمير مناطق الشؤون الادارية المعادية لها أو تلويثها بالمواد الكيماوية الضارة .

هذا وان سما تجدر الاشارة اليه أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفقه أن يستعمل لونا هاسا من ألوان الاستخبارات الحربية و أعنى به ”الخدع الحربية“.

و للخدع الحربية آثارها الهامة في تاريخ الحروب قديما، و حديثا، و قد

تؤثر على سير المعارك الحربية، الى الحد الذى يحقق انتصار جيش من الجيوش، دون أن يشتبك فى معركة فعلية، وقد يكون هذا الجيش المنتصر أقل عددا وعدة، ولكنه يحقق نصره بواسطة هذه الخدع، التى تتم عادة باستعمال قوات فدائية، مدربة، تندس خلف صفوف الجيش المعادى لتنشر فيه الاشاعات، و الفتن التى تزعزع الثقة فى النصر، و تفت من روح الجنود . و تاريخ الفن الحربى فى صدر الاسلام يقدم لنا أول خدعة حربية تمت تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم .

فحينما أهدقت جيوش الحلفاء المتحزبة من قريش، و فزارة، و مرة، و أشجع، و سائر غطفان، و كنانة، و أطبقوا على المدينة فى عشرة آلاف من أحابيشهم، فيما عرف فى التاريخ الاسلامى ”بغزوة الاحزاب، أو غزوة الخندق“، بالاضافة الى غدر بنى قريظة و بن والاهم من اليهود . . حينما حدث ذلك . . استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الحيلة الحربية فى تشتيت صفوف الحلفاء، و تشكيك نوايا بعضهم فى بعض، و ايها سهم بصلابة القوة الضاربة التى يتمتع بها جيش المسلمين المتترس خلف الخندق، حيث تقدم جندى من جنود المسلمين يطلب الاذن من الرسول القائد بأن يعمل فى صفوف الأعداء بايقاع الفتن بينهم، و التجسس عليهم لصالح المسلمين، و ضرب تحالفهم الحزبى و تشتيته، فقال له عليه السلام :

”خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة“،

ذلكم الجندى البطل هو . . نعيم بن مسعود بن عامر . .

و كان نعيم قد أسلم ولم يعلم قومه باسلامه آنذاك فخرج إليهم مستغلا هذه الفرصة . فأتى بنى قريظة فقال لهم : قد علمتم ودى اياكم و خاصة ما بيننا وبينكم .

قالوا : صدقت . فقال ان قريشا، و غطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، ولا تقدرّون عن التحول عنه، و قريش و غطفان ليسوا كذلك، ولا مثلكم، ولا طاقة لكم بمحمد ان تركتم معه فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا . فقالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم أتى قريشا فقال لابي سفيان : قد عرفتم صداقتى لكم، وبلغنى أمر لزنى أن أعرفكم به فاكنتموا عنى . قالوا : وما هو ؟

قال : اعلّموا أن اليهود قد ذموا على ما فسخوا من عهد محمد، و قد أرسلوا اليه أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونه الى محمد، و يرجعون معه عليكم . فشكرته قريش على ذلك . ثم أتى غطفان فقال مثل ما قال لقريش ! !

فلما أن أرسل أبو سفيان و غطفان الى بنى قريظة يستحثونهم على القتال، فرد بنو قريظة قائلين : لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم .

فلما رجع الرسل اليهم بهذا الشرط قالوا : صدقنا والله نعيم . و أبوا القتال، و أنهى الحلفاء حصارهم للمدينة، و تشتت الأحزاب، و كفى الله المؤمنين شرهم، بحيلة حريية ذكية، من جند ذكى، تحت قيادة عبقرية ذكية .

هذا . . . و فى مصادر التاريخ الاسلامى و سيرة النبى الكريم لمحات وضاءة جديرة بان تنشأ لها مؤسسة علمية تتخصص فى دراسة الجوانب المتعددة من عبقرية الرسول الكريم عليه السلام فى جميع المجالات المختلفة من حريية، و سياسية، و اجتماعية و غيرها .

---

تمبيه : اعتمدت فى النقول التاريخيه على سيرة ابن هشام، و جوامع السيرة لابن حزم .